مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 13 / العـدد: 02 (السنة2025)، ص: 572-591

تآكل الهوية في الحداثة السائلة: مقاربة نقدية لفكر زيغموند باومن

"The Erosion of Identity in Liquid Modernity: A Critical Approach to the Thought of Zygmunt Bauman"

د. أمبارك أحمد[1]، د. بكيري محمد أمين[2]
[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، a.embarek@univ-dbkm.dz
[2] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، m.bakiri@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2025/03/27 تاريخ القبول: 2025/05/23 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص: يتناول المقال مفهوم الهوية في ظل التحولات المعاصرة، من خلال تحليل رؤية زيغموند باومن حول "الحداثة السائلة" وأثرها على الفرد والمجتمع. يسلط الضوء على كيفية تفكك الهويات التقليدية تحت تأثير العولمة والاستهلاك، حيث أصبحت الهوية متغيرة وغير ثابتة بفعل التقدم التكنولوجي وانعدام المرجعيات الصلبة التي كانت تشكلها في الماضي. يناقش المقال العلاقة بين الحرية والأمن في تشكل الهوية، إضافة إلى دور النزعة الاستهلاكية في إعادة إنتاجها وتشكيلها باستمرار. كما يبرز التحديات التي تواجه التعليم في ظل السيولة، حيث لم يعد التعليم قادرًا على الاحتفاظ بوظيفته التقليدية وسط فيض من المعلومات المتدفقة بسرعة. في النهاية، يقدم المقال قراءة نقدية لنظرية باومن، مشيرًا إلى مخاطر العولمة على الاستقرار الاجتماعي والثقافي، وإلى ضرورة البحث عن نماذج جديدة للحفاظ على هوية متوازنة في عالم متغير.

كلمات مفتاحية: الهوية، الحداثة السائلة، العولمة، زيغموند باومن، النزعة الاستهلاكية، الأمن، الحرية، التعليم، المجتمع، التفكك الاجتماعي.

Abstract:
The article explores the concept of identity amid contemporary transformations by analyzing Zygmunt Bauman's perspective on "liquid modernity" and its impact on individuals and society. It highlights how traditional identities disintegrate under the influence of globalization and consumerism, rendering identity fluid and unstable due to technological

advancement and the absence of the solid frameworks that once shaped it. The article discusses the interplay between freedom and security in the formation of identity, as well as the role of consumerist tendencies in continuously reshaping and reproducing it. It further emphasizes the challenges facing education in the context of liquidity, where education struggles to retain its traditional role amidst an overwhelming flood of rapidly circulating information. Finally, the article offers a critical reading of Bauman's theory, underscoring the risks globalization poses to social and cultural stability, and the urgent need to seek new models for maintaining a balanced identity in an ever-changing world.
Keywords: Identity, Liquid Modernity, Globalization, Zygmunt Bauman, Consumerism, Security, Freedom, Education, Society, Social Disintegration.

***المؤلف المرسل:** د. أمبارك أحمد[1]

مقدمة:

يُعد مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم تعقيدًا وتشابكًا في الفلسفة وعلم الاجتماع، حيث يعكس جوهر الذات الفردية والجماعية، ويحدد علاقة الإنسان بنفسه وبالآخرين. لطالما كانت الهوية محورًا رئيسيًا في الدراسات الإنسانية، إذ ارتبطت بتعريف الذات، والانتماء، والثقافة، والتغيرات الاجتماعية عبر العصور. ومنذ العصور القديمة، ناقش الفلاسفة طبيعة الهوية، فهل هي ثابتة أم متغيرة؟ هل تتشكل من الداخل أم تتأثر بالمجتمع؟ وقد جاءت الفلسفات الحديثة لتعزز فكرة أن الهوية ليست مجرد كيان ثابت، بل هي عملية مستمرة من التشكل والتفاعل مع البيئة الاجتماعية.

لقد شكلت العولمة تحديًا كبيرًا للهويات التقليدية، إذ أدى انتشار التكنولوجيا الرقمية، والهجرة، والثقافة الاستهلاكية إلى إحداث تحولات جوهرية في طبيعة الانتماءات الفردية والجماعية. لم يعد مفهوم الهوية مقتصرًا على الإطار القومي أو الديني فقط، بل أصبح أكثر تعقيدًا، يتأرجح بين المحلي والعالمي، وبين الثابت والمتحول. أصبح الأفراد يبحثون عن هوية تتماشى مع القيم الكونية، لكن دون فقدان خصوصياتهم الثقافية. وقد أدى هذا إلى بروز تيارات فكرية جديدة تدرس علاقة الهوية بالحداثة، ومن بين أهم المفكرين الذين تناولوا هذه القضية كان زيجمونت باومان.

في هذا السياق، قدم باومان رؤيته حول "الحداثة السائلة"، حيث يرى أن الهوية فقدت استقرارها التقليدي وأصبحت مرنة، متغيرة، وغير يقينية، تعكس حالة من اللايقين الاجتماعي .(Bauman, 2000) فالمجتمع الحديث لم يعد قائمًا على القيم الثابتة والانتماءات المستقرة، بل أصبح فضاءً متغيرًا، تُعاد فيه صياغة الهوية باستمرار وفقًا للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية. يرى باومان أن

الأفراد في المجتمعات السائلة يعيشون في حالة من القلق الدائم بسبب عدم استقرار هوياتهم، مما يجعلهم ينجذبون إلى نماذج هوية استهلاكية تعتمد على الاختيارات الفردية بدلًا من الانتماءات التقليدية.

تُثير هذه الرؤية أسئلة مهمة حول مدى قدرة الأفراد والمجتمعات على التكيف مع هذه التحولات، وما إذا كانت السيولة في الهوية تعني التحرر والمرونة أم أنها تعكس حالة من الضياع والتفكك. فهل يمكن للأفراد أن يعيشوا بدون هوية مستقرة؟ وهل فقدان الإحساس بالهوية يؤدي إلى هشاشة العلاقات الاجتماعية؟ وكيف يمكن إيجاد توازن بين الثابت والمتحول في تكوين الهوية في ظل العولمة والحداثة السائلة؟

من هنا تأتي أهمية دراسة مفهوم الهوية في ظل الحداثة السائلة، ليس فقط لفهم تأثير العولمة على الأفراد، ولكن أيضًا لاستكشاف كيف يمكن للمجتمعات الحفاظ على توازن بين الحفاظ على الهوية والانفتاح على التغيير. في هذا البحث، سنناقش مفهوم الهوية من زوايا فلسفية واجتماعية، مع تحليل جدلية الثابت والمتحول فيها. كما سنسلط الضوء على رؤية باومان النقدية للهوية في ظل الحداثة السائلة، ونناقش انعكاساتها على المجتمع الحديث، بالإضافة إلى تقديم مداخل نقدية لهذه الرؤية، سواء من المنظور العربي أو العالمي، في محاولة لفهم طبيعة الهوية في القرن الحادي والعشرين.

الإشكالية الرئيسية

انطلاقًا مما سبق، تطرح هذه الدراسة الإشكالية التالية: كيف تتغير الهوية في ظل الحداثة السائلة وفقًا لرؤية زيجمونت باومان، وما تأثير هذه التغيرات على الأفراد والمجتمعات؟ وهل تُعد سيولة الهوية ميزة تضمن حرية الاختيار أم أنها تؤدي إلى تفكك اجتماعي وفقدان المعنى؟ وما البدائل التي يمكن تقديمها للحفاظ على توازن بين المرونة والثبات في تشكيل الهوية؟

قراءة سوسيولوجية في الهويّة

1- مفهوم الهوية: -في معناها اللغوي-

يحتلّ مفهوم الهوية مكانة هامة في أوساط المفكّرين والفلاسفة، حيث شكّل هذا الإقبال تنوّع وتعدّد دلالاتها وفروعها، وارتأينا أنه ينبغي علينا في البداية الإشارة إلى مدلولها اللغوي، إذ وردت في لسان العرب بأنها **"هويّة هوّة وقيل، الهويّة بئر بعيدة المهواة وعرشها سقفها المعميّ عليها التراب فيغمر به واطئه فيقع فيها ويهلك"** (منظور، 2016، صفحة 49)، معنى هذا أنّ الهوّة مفهوم يضرب بأعماقه في الذّات.

وفي موضع آخر، يعرّفها الجرجاني بأنها **"الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"**. (الجرجاني، دس، صفحة 212).

وقد وردت الهويّة كذلك في المعجم الفلسفي لمراد وهبة "**هويّة Identité, Identity تقال بالترادف على المعنى الذي ينطلق عليه اسم الموجود، إلا أنها ليست تنطلق على الصادق، هي أيضا من الألفاظ المنقولة لأنها عند الجمهور حرف، وهنا اسم، ولذلك ألحق بها الطرف المختص بالأسماء وهو الألف واللام، واشتق منها المصدر، فقيل الهويّة من الهو كما نشتق الإنسانية من الإنسان والرجولية من الرّجل**" (وهبة، 2007، صفحة 667)، ويتجلّى بوضوح هنا بأن لفظة الهويّة مشتقة من لفظ الهو.

فضلا عن ذلك، تعبّر الهويّة عن "**جمع هوايا، هويّة حقيقية مطلقة في الأشياء ولأحياء مشتملة على الحقائق والصّفات الجوهريّة: هويّة النفس الإنسانية، بطاقة هوية من النسوية إلى الهو**" (مسعود، 1992، صفحة 938)، ومن هذا المنطلق فهي تمثل جوهر الشيء وحقيقته حيث تقوم على جملة من الثوابت التي تتغيّر وتتجدّد.

في معناها الاصطلاحي:

للهوية العديد من التعريفات، إذ يراها البعض بأنها "**مجموعة من الخصائص والمميّزات الأساسية الاجتماعية، الفلسفية، التي تدل بوضوح على حقيقة أو كيان قوم تجمعهم هذه الخصائص في المعارف زمكاني، فتميّزهم عن الآخرين، فهويّة الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي جوهرها وحقيقتها**" (عمارة، 1999، صفحة 06)، وتفسيرا لذلك فإن لكل حضارة مجموعة من الصفات التي تتّسم بها والتي تميّزها عن الآخرين حيث يظهر ذلك في عناصرها كالعقيدة واللغة والتراث الثقافي، الذي يحقق من خلاله اندماج الأفراد وانتمائهم للجماعة، وفي نفس الصدد يزعم "ألكس مكشللي" أنّ هذا المفهوم بقدر سهولة ضبطه إلا انه يبقى يشوبه نوع من الغموض، ففي نظره "**على الرغم من بساطة الظاهرية التي يبتدئ بها مفهوم الهوية فإنه بخلاف ذلك يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد، فالهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة إنما حقيقة تولد وتنمو وتتكون وتتغير وقد شرع الإنسان في البحث عن كينونته وذاته ليحدّد هويته**" (مكشللي و تر: علي وطفة، 2012، صفحة 07)، باعتبار أنّ الهوية تنشأ مع الإنسان وتنمو معه وتتغيّر وفقا لمستجدّات العالم الذي يعيش فيه، فبها يستطيع الكشف عن ذاته المتفرّدة والمتميّزة عن الآخرين.

حريّ بنا التّطرّق كذلك، إلى المفهوم الذي أعطاه المفكّر والطبيب النمساوي "سيغموند فرويد" إذ قصد "**بدلالة الهوية الأنا الفردية الشخصية، ولها دور في تحديد الفرد لمن يكوّنه وما سيكوّنه بحيث يكون المستقل المتوقّع امتداد واستمرار خبرات الماضي**" (حافظ، 2012، صفحة 29)، وبذلك تصبح الهويّة ما هي إلا إدراك الفرد لذاته وكينونته باعتباره كائن يستطيع تدبير شؤونه وكذا خدمة الآخرين دون الانغلاق على نفسه، فضلا عن ما سبق، يعرّفها "ماكس فيبر" بأنها وعي الجماعة بالأصل المشترك، فهي جل التعبيرات الخارجية المألوفة لجماعة ما مثل: الرّموز والألحان، و هو ما يميز هويّة الجماعة عن

سائر الهويات الأخرى، إذ تبقى هذه الأخيرة متحفظة بوجودها وحيويّتها وتماسكها مثل: القيم والتراث الثقافي، ومن جهة أخرى رأى "محمد عابد الجابري" أنّ الهوية تمثل حجر الزاوية في تكوين الأمم كونها تمثل تراكما تاريخيا طويلا (مزلرة، 2017، الصفحات 3-4)، وهي بذلك ليست بنية جامدة ولا معطى نهائي بدليل أنّ مفرداتها تبقى في تشكل و ظهور من حين إلى آخر حسب نوعية الأنشطة الثقافية التي يمارسها الناس بحسب الظروف والتحدّيات التي يواجهونها. (حسانين، 2019، صفحة 34) .

أما من الناحية السوسيولوجية فإن الهوية ترتبط ارتباطا وثيقا بكل ما هو اجتماعي حيث يرى "ريجارد جنكز" أنّ الهوية الاجتماعية تصور حول من نحن ومن الآخرون وكذلك تصوّر الآخرين حول أنفسهم وحول غيرهم، وهي تتكون في إطار التفاعلات الاجتماعية كما وتشترط عمل مقارنة بين الشعوب حتى تؤسس أوجه التشابه والاختلاف بينهم. (جعفر، 2023).

على ضوء هذه التعريفات نصل إلى أنّ الهويّة كيان قوم ينطوي على مجموعة من الخصائص الأساسية التي تشعر الأفراد بالانتماء إلى جماعة معيّنة لها عقيدة ولغة وتراث ثقافي يميّزها، كما أنها كيان تاريخي خاضع للتّغيّر والتّطوّر والتّبدّل.

واقع الهوية السائلة عند "زيجمونت باومان"في الزمن ما بعد الحداثي:

تعدّ الهوية ركيزة أساسية في حياة المجتمعات كونها أداة يتحقق من خلالها وجودهم كما وتثبت لها خصوصياتهم، بناءًا على محددات وأبعاد متعارف عليها تظهر في شكل سلوكيات وأساليب عيش محددة، وقد شكلت مشكلة الهوية دراسات ونقاشات كبيرة بين أصحاب النظريات الاجتماعية، إلا أنّ محور النقاش قد ارتكز حول فكرة مفادها أنّ الهوية في الماضي كانت تمثل قاعدة يتحقق من خلالها استقرار المجتمع، كما وتنظم شؤونه باعتبارها تقوم على أسس ثابتة، إلا أنها مع ظهور العولمة وبلوغ درجة كبيرة من التّطوّر التكنولوجي أضحت تعيش نوعا من التّغيّر والتبدل باستمرار ما خلق تأزما نتيجة لغياب بنى ثابتة ترتكز عليها المجتمعات الغربية و بالتالي زوالها.

2- الهوية ما بين الصلب والسائل عند باومان:

شهدت الحياة المعاصرة العديد من التحوّلات التي كان لها أثر في تغيّر العديد من الأنماط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نظرا لما أحدثته التكنولوجيا والتقنية، ما جعل العديد من التّصورات تتغير وتتبدّل بعدما كانت تمثل الثبات والاستقرار، فما يحصل في وقتنا الراهن من محاولات التنميط العالم لغة وقيما وعاداتا وتقاليدا أطلق عليه المفكر البولندي زيجمونت باومان بعصر "الحداثة

السائلة" الذي يرمي إلى خلق كوكب ديمقراطي يقوم على ثقافة كونية تتحكم فيها وسائل الإعلام والاتّصال. (شرارة ح.، 2019، صفحة 286).

اتّخذ "باومان" على عاتقه مهمة تفسير الظّواهر الاجتماعية الجديدة وخاصة مشكلة الهوية التي أصبحت ترتبط بشكل وثيق بالعولمة، فهي في نظره ما هي إلا تلك التغيرات والتطورات في إستراتيجيات الرأسمالية لفرض نفوذها وسيطرتها على الميادين الاقتصادية والثقافية على المجتمعات، وهذا يحيل إلى فطنته كونه قد كان عضوا في الحزب الشيوعي البولندي ما يجعله خبيرا بالفكر الماركسي، فضلا عن إطلاعه ومعرفته للنظام الرّأسمالي ومراحل تطّوره (حسين، 2023)، هذا يضفي بنا إلى القول أنّ هذه المعرفة قد ساهمت بشكل بكير في تشكيل أرائه حول ما يحدث للمجتمع في طور الرأسمالية التي أصبحت تهيمن وتتحكم في كل شيء، ونجد أنّ الهوية كانت تمثل في فترة الحداثة الصلبة قاعدة يستقر من خلالها المجتمع باعتبارها تقوم على أسس ثابتة توجه أساليب عيش الأفراد، كما كانت تسعى للحفاظ على مقوّماتها من أجل تحقيق الوحدة والانتماء والانسجام والتجانس، إلا أنه حسب "باومان" أصبحت تعيش التغيّر باستمرار في الزمن الما بعد الحداثي أو كما يسميه بـ"الحداثة السائلة". (أبوجبر،حجاج، 2022، صفحة 155).

تتأسس الهوية على "الكفاءة النسبية" للأدوات والوسائل التي توفرها في بناء محددات وأبعاد متعارف عليها تظهر في شكل أنماط وسلوكات وأساليب عيش محددة متوارثة عبر أجيال وأجيال، وهنا نجده يصيغ تصوّر "ماكس فيبر" عن العقلانية التي لعبت دورا هاما في توجيه التفكير من أجل تنظيم أسلوب الحياة من خلال التخطيط والتوجيه والتسيير من أجل تحقيق الغايات، إلا أنه مع ظهور العولمة قد تغيّرت هذه الرّكائز التي بنى عليها "فيبر" تصوّره (أبوجبر،حجاج، 2022، صفحة 155)، كون العقل البشري قد أصبح مبدعا ومبتكرا للعديد من الأدوات والوسائل التي خلقت العديد من الفجوات والتي كان لها دور في خلق هويات متنوعة جعلت المجتمع يعيش التشتت والتّصدّع وهو خلق أزمة حقيقية.

فضلا عن ذلك، يعتقد "باومان" أنّ "**سيناريو ما بعد الحداثة يمثل تعقيدا أكبر باعتبار أنّ الاختيار يبقى مفتوحا أمام الأشخاص، ما يخلق عالما مليئا بالتناقضات وهو ما سيجعل الهويات متعددة ومرنة ... هذه الحقيقة تخلق دولة تعاني من اللايقين والألم المسبوق**". (Mármol, 2019, pp. 34-35).

انطلاقا من هذا، فإن هذه النقلة فقد أعطت للإنسان حريته في اختيار ما يريد بما في ذلك هويته، نجد أنها خلقت له في مقابل ذلك الخوف والقلق نحو ما ستكون حياته نتيجة هذا التغيّر الرهيب واللانهائي، إذ إنّ هذا التسارع في التغيير خلق للفرد العديد من الارتباكات في حياته، فالمجتمع الذي كانت

تحدده أنماط سلوكية صلبة في الماضي أضحت سماته في الوقت الراهن تقوم على التغير والتبدل، إذ أصبح عاجزا عن الاحتفاظ بشكله.

في نفس السياق، يرى "أنطونيو كاسيلي" أنّ هذه البيئة قد أظهرت ممارسات جديدة جوهرها التكنولوجيات الحديثة ومدى تغلغلها في أوساط المجتمع الذي زودته بالعديد من الأدوات والبدائل والعدّة التقنية التي أعادت تشكيل أنماط التواصل بين أفراد المجتمع (ص46.، 2009، صفحة 46)، ما جعل الفرد عضوا فاعلا ومنتجا ومشاركا في الوسط الذي يعيش فيه، فلا وجود لأسس متينة توجه وتؤطّر سلوكاته في إطار الجماعة فينتقي ما يريد ويترك ما يشاء، وفي هذا الصدد يزعم "باومان" بأنه قد **"انفصل أفراد الحداثة ((الكلاسيكية)) عن الجماعة فوظّفوا ما اكتسبوا من قوة جديدة وامتيازات تحظى بها القوة الفاعلة في السعي المحموم وراء ((الاندماج في الجماعة من جديد))"** (باومان.، 2016، صفحة 79)، ما يعني أنّ المجتمع الحديث يقوم على قدر كبير من الفاعلية البشرية، فالتغيّرات السريعة التي أصبحت تلحق المجتمعات تتطلّب من الأفراد أكبر قدر من الانسجام مع الوضع السيولي.

وصل باومن من خلال تحليلاته لوضع المجتمع في مرحلة ما بعد الحداثة إلى فكرة مفادها أنّ حاجة الإنسان إلى الهوية إنما ينبع من الحاجة إلى الأمان الذاتي وهو ما يصفه بأنه أمان يعتريه نوع من الغموض، ومهما ارتبط هذا الشعور بالوعود يبقى مرهونا بتجارب غير ممتحنة ما يجعلها تسبح في فضاء متلبس، فلا وجود لسند ترتكز عليه، وبالنسبة لـ"باومان" يبقى التشخيص للهوية في زمن السيولة تشخيص مرتبك نظرا لغياب أصل مفقود وموطن ظلّ موضع سؤال بالنسبة له، ولا يخفى عليه ما تتوق له النفس الحرة في المجتمع الحر بأن تكون متجاوزة للهويات القسرية، فما يميّزها في الأزمنة الحديثة أنها تكون أكثر ميوعة وانسيابية ومغرية لانتقائها (ص46.، 2009، الصفحات 47- 48)، معنى هذا أنّ الفرد أصبح يمتلك قدرة في بناء الهوية وتدميرها كيفما يشاء اذ تتجلّى مظاهرها في أنماط سلوكية غريبة تغزو حياته مثل: نوع اللباس والكلام ... الخ، حيث تبقى هذه الأشكال سائلة متغيّرة بتغيّر الزمان والمكان ولا تعرف الثبات في القيم والأعراف والعادات، وحسبه أن **"طريقة البناء هذه لا يمكنها أن تنتج سوى مجتمعات واهية وعابرة كأنها مشاعر متبددة تهيم على غير هدى في سعيها اللانهائي إلى ملاذ آمن"** (باومان.، 2016، صفحة 84)، وهو ما يجعل المجتمعات تعيش في خوف دائم حول ما سيكون عليه الحال في المستقبل، كما تكون العلاقات بين الأفراد مجرّد لحظات عابرة سهلة الزوال، فلا وجود لأسس ثابتة وبنى تتحكم في النظام الاجتماعي.

ضف إلى ذلك، يعتبر "باومان" أزمة اللاجئين سببا آخر في جعل الهوية غير مقيّدة وإنما تترك بحرية، فهي منفتحة على التغيّر والتعديل، إذ أن الهجرة التي يشهدها العالم اليوم وضعت البشرية في واقع صعب وغريب، أهم ما ميّزه أنه أصبح يتشكّل بصفة مستمرة ودائمة، وهو ما أسس لنا هويات جديدة

ومتعددة تصنع خارج الهوية المحلية التي تستند إلى سلسلة من الأفكار والقيم والأعراف والعادات والمعتقدات، وهي هوية سائلة تنشأ في مكان ما حيث لا تبالي هذه الأخيرة باختلاف العادات والتقاليد بل تهدف إلى إنشاء مجتمعات مقبولة وسائلة بلا تاريخ وأصل.

من خلال ما سبق، نستنتج أنّ الهوية في فترة الحداثة الصلبة كانت تبنى عن طريق مجموعة من الأسس الصلبة المتينة والتي تظهر في شكل سلسلة من الأفكار والأعراف والقيم والمعتقدات مما لها تأثير فعّال في توجيه سلوكات الأفراد وفي ضمان استقرار المجتمع وتحقيق الانسجام والتّجانس بين الأفراد، وهي هوية تحترم المشترك الجمعي وتحافظ على مقوّماتها التي تميّزها عن الأمم، في حين الهوية في زمن العولمة قد أصبحت متغيّرة ومتعددة لا تعرف الثبات في القيم والأعراف تقوم على منطق الاستهلاك وهي ليست هوية أصيلة وإنما هوية هجينة مختلطة سائلة وذائبة تأسست في إطار العديد من السلوكات الهشّة والرّخوة كون العولمة قد أثّرت على العديد من النظم القيمية التي تتشكل منها المجتمعات فمثلا: اليوم نجد أنّ العادات والمعايير التي تقوم بتعريف مجتمع ما قد تغيّرت من خلال استخدام الانترنت والقنوات التلفزيونية والتي ساهمت في خلق هويات جديدة تتأسس من خلالها المجتمعات الحديثة، وهذه العملية تساعد على خلق وسائل التكامل الثقافي للشعوب وفي نظر"باومان" **"بعد أن كانت مشروع حياة كاملة مشروعا يزامن فترة الحياة، فقد تحوّلت الآن إلى خاصية اللحظة، فلم تعد ترسم مرة تبنى لتستمر إلى الأبد، لكنها تركّب وتفكّك بشكل متقطّع مرارا وتكرارا"**. (باومان ز.، 2016، صفحة 231).

3- تشكّل الهوية على الحرية والأمن:

إنّ موجة السّيولة التي تخلّلت أنماط الحياة الإنسانية المعاصرة أذابت كل المعتقدات والثوابت الصلبة، فغياب فكرة اليقين جعل المجتمعات تشهد هويات مرنة ومتعددة قابلة للتشكل باستمرار، لا تستند إلى أي أنساق صلبة تتحكّم فيها، وتوجه الحياة من خلالها عكس ما كان في الماضي، بل أصبحت التّحوّلات والمنعطفات السّريعة هي الوضع الجديد الذي يحدد التركيبة والبنية التي توجه الفرد في فكره وقيمه وسلوكياته وعلاقاته مع الآخرين، بما في ذلك هويته التي تغير مسارها بالضرورة وفق قيمتين إنسانيتين رئيسيتين هما: الحرية والأمن، "فحسب "باومان" أن هذين الأخيرتين بمثابة ركائز لا يمكن الاستغناء عنها لعيش حياة محترمة وآمنة يغيب فيها الخوف من المجهول، ونجده كذلك قد أكّد كثيرا على ضرورة إيجاد سبل للتوفيق بينهما، وهو الشيء الذي ترك للباحثين السوسيولوجيين مجالا للخوض فيه من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع وتحقيق انسجامه واستقراره.

يقرّ المفكّر السوسيولوجي البولندي "زيغمونت باومان" بوجود علاقة صراع بين كل من الحرية والأمن، وتظهر هذه التناقضات في الرغبة في الشعور بالانتماء الذي يعدّ نوعا من أنواع الارتباط الوجداني

الذي يحس فيه الفرد بارتباطه بشكل وثيق بجماعته ما يحقق ولائه للأشياء التي ينتمي إليها، وكذا الرغبة في الإحساس بالتّميّز من جهة أخرى، فالأمن الذي تسعى إليه المجتمعات نجده يركز كثيرا على بقاء واستمرارية المجتمع في إطار يضمن كل ما يعدّ تهديدا للهوية الجماعية والثقافية (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 26)،

فضلا عن ذلك، نجد أنّ مشكلة الهوية في الزمن السيولي قد أصبحت تتأسس على كل من الحرية والأمن، فعلى الرغم من صعوبة إيجاد طريقة تجمع بينهما، إلا أنّ المفكر البولندي السوسيولوجي استطاع وضع حلّ لها وهي "**أن نسير في حركة تشبه بندول الساعة أولا وباندفاع وحماسة نحو إحدى القيمتين، وبعد ذلك نميل عنها باتّجاه الأخرى**" (باومان ز.، 2016، صفحة 32)

يزعم "باومان" أنّ الهويات الجديدة تبنى على النموذج الشخصي للفرد أين أصبحت مختارة وقائمة على ذوات عدّة، حيث شبّه لنا هذا النموذج بنموذج "الحرباء" أو "نموذج بروميثيوس"*، فكلا النموذجين على مقدرة من التّحول إلى هيئات عشوائية ومختلفة عن الهيئة الأصلية (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 30)، بمعنى أنّ الهوية غدت مهارة ومهمة فردية ترمي إلى أن يكون الفرد قادرا على السعي وراء تحقيق رغباته وأهدافه الشخصية، فهذه الحرية تنمّي فيه الثقة بالنفس وبالآخرين وبالمجتمع ما يضمن مستقبلا آمنا للجماعات.

إنّ الوضع الراهن الذي تعيشه الإنسانية اليوم قد جعل الهوية حسب مترجمنا "باومان" مرنة ومائعة، وذلك يعود إلى "النزعة الفردية التي أدّت إلى ذوبان معنى الالتزام تجاه الجماعة التي ينتمي إليها، ولم يعد للهوية القدرة على الحفاظ بشكل محدد تؤطّر من خلاله العلاقات مع الآخرين وتوجه سلوكاتهم، والذي يمكن أن يخرجها من التغيّر هو "الإنسان الحر" الذي يمتلك الإرادة الكاملة في التّغيّر متجاوزا بذلك كل القيود الاجتماعية الموروثة التي تدفع بالعلاقات إلى التّحرر، ما دامت هذه الممارسات تختلف فيما بينها، فإن سعى المرء نحو الحرية والأمن في تأسيس هويته كفيل بجعل طريقة عيشه سعيدة وجميلة وآمنة، ولكن عليه أن يبقى متفطّنا لهذا التّقدّم الرّهيب حتى يتمكّن من حماية نفسه (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، الصفحات 64- 65)

إلى جانب ذلك، يظهر التنافر بين الحرية والأمن في تأسيس الهوية من خلال جانبين هما: الأوّل : المستفيد الذي يعتبرها عباءة خفيفة يسهل تركها وإعادة وضعها، والثاني: المتضرّر الذي يعاني من القهر وعدم الأمان، فيعتبر الهوية ملكية ثابتة وحق طبيعي (بوعروري، 2022، صفحة 866)، فهنا نجد أنهما يستعملان نفس الكلمة للتعبير عن أوضاعهم (الهوية) إلا أنهما يختلفان في وضع معانيها ومقوماتها

* – ** بروميتيوس: هو عملاق حارب في صف الآلهة الولمبية من العمالقة في الحرب العظمى، وقد كان ذو حنكة ودهاء ومجيب للبشر دونا عن الآله وقصته من اهم القصص في الميثولوجيا الغربية

ومبادئها تمام الاختلاف والذي بدوره يضع حدّا للتّحاور والتفاهم، لذلك يجب على الجماعات في الزمن المرن التعايش مع التغيرات في إطار يقتضي التوازن مع كل من الحرية والأمن.

تجدر الإشارة إلى أنّ مفكرنا يصف الهوية السائلة على انها هوية "هجينة"، فهي ذلك التهجين الثقافي الذي غدت تقوم عليه الهويات الجديدة، وهذه الفكرة شبيهة بفكرة "بيار بورديو"* في تمييزه للوضع الاجتماعي حيث يشبه هذا الأخير الهويات بأنها آكلة لكل ما تجده دون التزامات تقيّدها، وهذا التهجين الثقافي راجع إلى التّحرر وفي نفس الوقت فيه تجاوز للهويات الجامدة. (عمور،، 2023، صفحة 612).

4- تشكّل الهوية على ثقافة الاستهلاك:

شهدت الحياة الإنسانية في مرحلة ما بعد الحداثة تباينا واختلافا في أنماطها فسعي العولمة نحو تعميم نمط حياة واحد للأمم والشعوب ما شكّل لنا هويات تستند إلى حد ما على منطق الاستهلاك، لأن الأفراد لم يعودوا يؤمنون بالعادة والمألوف، فتلك المؤسسات التي تضع الاختيارات الفردية والتي تضمن كذلك دوام العادات والتقاليد لم تعد قادرة على الاحتفاظ بشكلها لزمن طويل، حيث أصبحت تتحلّل وتتغيّر وتتشكّل بسرعة تفوق الزمن اللازم لتشكّلها.

يبيّن لنا "زيجمونت باومان" أنّ المجتمع المعاصر قد أصبح مؤسسة استهلاكية تظهر فيها الثقافة كوعاء للسلع ترمي إلى الترويج الثقافي، ولها تأثير ومفعول على سلوك الأفراد، فالتبعية الاستهلاكية هي الشرط الضروري لقبول ثقافة المجتمعات أو رفضها (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 21)، فهوية المرء تقتضي منه القدرة على التسوق أين يكتسب هذا الأخير مهارة في صياغتها وتدميرها كيفما يريد، كما وتعلق هذه الهوية عن أي هوية أخرى كونها تمنحه قدرا كبيرا من الحرية الفردية التي تجعله مسؤولا عن نفسه فحسب، وبتعبير آخر ستكون هناك هوية واحدة فقط وهي الهوية الاستهلاكية (حسين، 2023)، معنى هذا أنّ الاستهلاك في المجتمعات المعاصرة يمثل عنصرا مركزيا ما يجعله أساس تقوم عليه الحياة اليومية وبالتالي فهو يوفر نقاطا مرجعية مهمة لبناء الهوية تضمن للفرد تماسكه الشخصي والاستمرارية وكذا التّكيّف مع الظروف المعيشية المتغيّرة.

إلى جانب ذلك، نجد أنّ ثقافة النّزعة الاستهلاكية قد فرضت بدورها على المرء أن يتماشى مع ضوء هذه التّحوّلات والتغيّرات حتى يكتسب قدرة على جذب الزبائن، فيقوم بعرض أسلوب حياته بمهارة تجذبهم إليه، وهو ما سيعمل على تعديل وإعادة صياغة الهوية الذاتية للفرد، فذلك سيظهر الأمر لا

): عالم اجتماع فرنسي، أحد الفاعلين الأساسيين بالحياة الثقافية والفكرية بفرنسا، Pierre Bourdieu* – **بيار بورديو (1930– 2002) (وأحد أبرز المراجع العالمية في علم الاجتماع المعاصر بل إنّ فكره أحدث تأثيرا بالغا في العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين.

كاستجابة لضواغط خارجية تفرض أنماط عيش محددة لجماعة ما بقدر ما ستبدو كواحدة من دلالات الحرية الشخصية للأفراد، فمع ثقافة الزمن المرن تخلّت الهوية عن مقوّماتها للمجتمع وحدته وانسجامه واستقراره، وذلك يرجع لهيمنة قوى السوق وبالتالي استحالة الحفاظ على تماسكها، فصهر الهوية وذوبانها يقابله ما يعرض على الفرد في السوق الاستهلاكية التي أصبحت تعرض عليه الجماعات بمثابة استهلاك مفروض، فإما أن يستهلك ما يعبّر عن ثقافة ما وإما أن يستهلك ما يعبّر عن ثقافة أخرى (شراد، 2017، صفحة 75) ، بمعنى انه يتم تحديد الهوية اليوم وفقا لما نشتريه إلى حدّ كبير أو من خلال إجبارنا على اختيارها، فمن خلال هذه المعاملة يعبّر الفرد عن هوياته من جهة ويحدّد له الهوية التي يودّ أن يكون عليها من جهة أخرى من خلال هذا المجال (الاستهلاك).

في نفس السياق، تعدّ الموضة حسب مترجمنا "زيجمونت باومان" المشغل الرئيسي للتغيّر في كل ثقافة، شرط أن يتماشى هذا التحويل مع الحالة الطبيعية التي تحدد من خلالها الطريقة المعيشية للجماعة البشرية، فتقوم هذه المؤسسات والهيئات بوضع إستراتيجية تخدمها ما يجعل الشكل الراهن للموضة تمثله هيمنة الأسواق الاستهلاكية واستغلالها اللامتناهي للوضع الإنساني، حيث يعبّر في ذلك قائلا: "**فالموضة تشكّل كل أسلوب حياة في حالة من الثورة الدائمة اللانهائية**" (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 28)، بمعنى أنّ الموضة قد أصبحت هي الأخرى تكتسب حمولة ثقافية كبيرة تفرض نفسها كسلطة اجتماعية تعبّر عن اتجاه ثقافي وأسلوب حياتي لمجتمع ما، ففي الزمن المنصهر غدت في سيرورة دائمة لا تعرف الثبات واللانهاية بل تبحث عن اللحظة الآنية التي تدفعها للتميّز عن عامة الناس ما يعكس لنا نموذج الحياة المادية المثالية للجماعات.

مما سبق ذكره، نستنتج أنّ الهوية في مرحلة السيولة قد أصبحت تقوم على منطق الإستهلاك حيث تخضع لعملية تطوير مستمرة مرتبطة بحياة الشخص الخاصة، وبذلك تغدو بناءًا ديناميكيا يقتضي إعادة التّأسيس والتشكيل مرارا وتكرارات وترتبط بمدى فهم المرء لنفسه وللعالم من حوله من جهة أخرى، وحسب باومان فإن الهوية تظهر فقط من خلال ثقافة الاستهلاك اذ يقول في ذلك: "**الهوية الفريدة والمتفردة لا يمكن التعبير عنها إلا في مادة يشتريها كل واحد على حدة، ولا تحقيقها إلا من خلال التسوق**" (باومان.، 2016، صفحة 140)، فهذا يكسب الفرد ثقة بنفسه ويفتح أمامه آفاقا جديدة يختار من خلالها هويته وفقا لرغباته وميولاته فيمتلكها ويتركها كيفما شاء.

5- الهوية في المجتمع الاستهلاك: نقد نظرية الحداثة السائلة عند باومن

على الرغم من أن زيغمونت باومان هو من بين أفضل علماء الاجتماع الأجانب الذين عرفت كتاباتهم انتشارا ورواجا في العالم العربي، إلا أنه لم يلق الكثير من التعليقات أو الأعمال التمهيدية التي تقدمه للقراء في الجزائر. ومع ذلك، فإن عالم الاجتماع الإنجليزي هذا، والذي هو من أصل بولندي، والمولود عام 1925، لا يتوقف عن نشر كتاب تلو الآخر، والذي نجد الكثير من علماء الاجتماع والفلاسفة والصحفيين أصبحوا يوظفونه لفهم الحداثة التي تزداد صعوبة تعريفها. وقد أصبحت الفكرة المركزية التي قال بها، ونعني بذاك فكرة "الحداثة السائلة"، مفتاحًا رئيسيًا لفك رموز أسرارها. لهذا السبب، فإن عملي المتواضع هذا سيكون مرحبا به باعتباره من المحاولات الأولى للتعريف بفكر هذا الفيلسوف. هذا المجهود سيقوم بتتبع الرحلة الفكرية لعالم الاجتماع، ويناقش العديد من الافتراضات النظرية، وطريقته الانتقائية والانتهازية لاحتضان الظواهر الاجتماعية، لتحديد وضعه الفريد. عالم اجتماع نقدي بدون فكر نسقي، عالم اجتماع المزيج والتجاوزات المواضيعية، عبر بومان القرن العشرين مثل مشابه لحبل مشدود، ومعرفة جميع الأسباب، ولمس جميع الموضات، والاندفاع إلى اليمين واليسار في سياق ملاحظاته ومن قراءاته. الهدف من درستنا هو جعله قابلاً للفهم، أكثر من إخضاعه للنقد.

يمكننا أن ننزعج بأكثر من طريقة بسبب "الموقف" الاجتماعي لزيغمونت بومان. في المقام الأول، يمكننا أن نلومه على فقر جهازه المفاهيمي: لأنه إذا ظهر مفهومان في جميع أنحاء عمله، يقطعانه ويشكلانه، فهما بالفعل مفهوما الحرية والأمن؛ مفهومان كان ألكسيس دي توكفيل قد وظفهما في كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، حيث " يتناول علم السياسة الخاصة بتوكفيل الحرية كما مورست في مجتمع موجود بالفعل، هو المجتمع الأمريكي " (مانسفيلد، 2016، صفحة 12)، و"بالنسبة إلى توكفيل، الحقوق مشتقة من الفضيلة؛ الفضيلة الموجودة في العالم السياسي، ستشجع تلك الفضيلة الفرد على المخاطرة بأمنه للدفاع عن الحرية " (مانسفيلد، 2016، صفحة 39). لقد كان هدف توكفيل من توظيف هذين المفهومين في كتابه الشهير هو تسليط الضوء على التناقض التأسيسي للأنظمة الديمقراطية. " إن مشكلة الديمقراطية يمكن أن تلخص بالشكل الآتي: إن المحرك الأول للديمقراطية هو كلف الإنسان الديمقراطي بالمساواة وهواه الغالب فيها. ولما كان كلفه بالمساواة يغلب حتى كلفه بالحرية، أصبح من الممكن أن يواكب كلفه بالمساواة الاستعباد كما يمكن أن يواكب الحرية. أي إن الاستعباد والاستبداد يمكن أن تتواجد مع أنظمة لها طابع ديمقراطي، بل إن المبدأ الديمقراطي – إن لم يهذب ويوجه – يميل إلى السير في اتجاه نظم استبدادية أقسى من أي نظام استبدادي قاساه الجنس البشري من قبل: إما استبداد فرد واحد على جميع الآخرين، وإما استبداد الأغلبية على الأقليات، وإما استبداد الكل على الكل. هذا هو التناقض الكامن في الديمقراطية " (توكفيل، 1962، صفحة 07).

ومع ذلك، فمن خلال مفهومي الحرية والأمن الغامضان نسبيًا، بدأ باومان نقده للمجتمعات الشمولية، والحداثة، وما بعد الحداثة، والمجتمعات ذات الهشاشة المنهجية، والمعروفة باسم المجتمعات "السائلة"، أي الموضوعات السوسيولوجية ذات أبعاد وامتدادات مقلقة، سواء في نطاقها ومداها أو في تعدد معاني دلالاتها. يتضاعف هذا الانزعاج من خلال حقيقة أنه لا يمكننا أن نمنح مكانة محددة لعالم الاجتماع البولندي: فهو ليس لا كاتب مقالات ولا منظّر ولا حتى رجل ميدان، بل هو نوع من "المشاهد الملتزم" لنصف القرن الماضي، وهو مفكر انتقائي، يصنع عسله من كل "الانتقادات الاجتماعية" وكل الأمراض التي عرفها نصف قرن. استوعب بومان هذا الموقف الانتقائي، بل إنه طالب به. تهيج أخيرًا وليس آخرًا: الهيجان الإعلاني الذي أثار حفيظة هذا المؤلف، الذي بلغ عدد أعماله العشرات (25 كتابًا بين 1997 و2013) والتي نالت - يجب الاعتراف بذلك - نجاحات مشرفة ضمنت لمؤلفها مكانة "شاهد عظيم" في المشهد الاجتماعي المعاصر. قد يرى البعض في هذا علامة على انتهازية باومان، والتي يبدو أنها تختمر أكثر فأكثر في البصمات النظرية وظواهر الحداثة المعاصرة غامض وانتقائي وانتهازي – هذه هي تقريبا السمات الأكثر مكروهية في المرحلة الحالية لإعادة الطابع التجريبي لعلم الاجتماع. لكن هذه السمات المزعجة تنقلب بسهولة ضد أولئك الذين يرغبون في محاكمته بشكل متسرع. من المؤكد أن جهاز بومان المفاهيمي جد فقير.إن القول بأن المجتمعات الشمولية هي انبثاق نموذجي للحداثة من خلال المبالغة في تقديم الأمن على الحرية، بينما على العكس من ذلك، فإن المجتمع ما بعد الحداثي يبالغ في تقديم الحرية على حساب الأمن، قد يبدو كاريكاتوريًا، لأنه من الواضح أنه تم العثور على هذا المخطط نفسه بالفعل عند توكفيل للتمييز بين المجتمعات الديمقراطية ومجتمعات الأنظمة القديمة،ولعل ذلك يعود إلى أن توكفيل " وجد و بومون أن التدفق والحركة والسريان هي السمات الغالبة في جميع أنحاء الولايات المتحدة " (إبستان، 2010، صفحة 35)، و هي فكرة تحيل إلى السيولة عند باومان؛ ولأن الغموض الفني إلى حد ما لهذه المفاهيم يسمح لنا بقول كل شيء. لكن هذا دون الأخذ في الاعتبار فترة المراقبة الطويلة بشكل خاص والتعنت أو العناد الذي يقوم به بومان بإجراء مثل هذه التشخيصات؛ مدة طويلة يمكننا تقسيمها إلى أربع مراحل للتأمل والتفكير.

بدأ كل شيء بالنسبة له بنقد الشمولية. نقد متفق عليه، سيقال اليوم، لقد تم التفكير في هذا الموضوع في جميع الاتجاهات منذ الخمسينيات. لقد تم التركيز والتشديد على تضخم الأمن الذي يجعل من الممكن وضع البيروقراطية ومعسكرات الإبادة على نفس المستوى. في الثمانينيات، تبع ذلك تفكير طويل إلى حد ما في مفهوم التناقض والازدواجية. لم يعد بومان يفكر في هذين المفهومين بطريقة حصرية وساذجة - فالكثير من الأمن يضر بالحرية والعكس صحيح -، ولكنه يكتشف في نفس الوقت كل من أمراض الحرية والحاجة إلى الأمن (على سبيل المثال في عدم الاستقرار). " ولا يعتقد المجتمع الحديث أنه

من الممكن أن يكون آمنا بدون الأخذ بمقاييس لحراسة أمه عن وعي و ترو، (...) يكون سبب المنع هدف الإدارة إذا كان هناك سبب للاعتقاد أن الاختيار المعين أو المحدد قد يجعل الناس يتصرفون بطريقة تضاد السلوك المطلوب لاستقرار النظام الاجتماعي وثباته، إن هذا هو التضاد أو التناقض بين التبعية والاستقلال، بين الضبط والانضباط الذاتي، بين التنظيم والحرية " (بومان، 2012، صفحة 28).

إن مانوية باومان (ثنائيته)المفاهيمية تتفتت وبالتالي تغتني فجأة. يلي ذلك مرحلة من نقد ما بعد الحداثة والنموذج النيوليبرالي الذي، حسب رأيه، هو أصلها. إنه ضمن هذا السياق يكتشف ظاهرة الاستهلاك الجماهيري، ومن خلاله يكتشف حرية مستلبة بشكل غريب. لأن حرية المستهلك ليست أكثر من أيديولوجية الاختيار الحر من خلال نظام محدد بشكل ضيق وقيود ضمنية. هذه المرحلة الثالثة هي بطريقة ما اختبار لمفهوميه الرئيسيين، مدركين في تناقضهما. لكن في المرحلة الرابعة، التي تجاوز فيها بومان السبعينيات من عمره، أظهر تمامًا موهبته باعتباره خبيرًا ومختصا في التشخيص للأزمنة الحاضرة، كما يقول الألمان. وهي استعارة مادية ونقدية (مرتبطة بالنقود) على حد سواء، تقودنا إلى عالم من العلاقات المبرمجة مسبقًا، حيث يتم التكييف والتوفيق بين الحرية والأمن وفقًا للقيود النظامية - مع الحفاظ على الأوهام التي تحملها هذه المفاهيم تاريخيًا.إذا كانت الحداثة، وفقًا لنيكلاس لوهمان (NiklasLuhmann)، تخضع لعملية تمييز وظيفي، " فالنظرية تعالج تمايز نسق الفعل وتبعات التمايز المستمر دائما وتتوافق بلا ريب مع التصورات الدوركايمية حول تقسيم العمل أو مع تقليد علم الاجتماع عموما الذي وصف المجتمع الحديث بالمجتمع المتمايز" (لومان، 2010، صفحة 49)، فإن الجانب الآخر من هذا التكاثر للأنظمة الفرعية المجهزة بوسائطها الخاصة هو عملية تمايز يعطينا بومان صورة بليغة عنها. سواء تعلق الأمر بالحب، أو الحياة، أو الحداثة، أو الزمن، أو الخوف، فإن سيولتها لا تدل فقط على هشاشتها أو عدم أهميتها، ولكن أيضًا تدل ظهور قطبيات في الماضي- وبالتالي إمكانات الصراع -، فإنه في الوقت الحالي لم تعد تظهر اليوم سوى مجالات اللامبالاة (الأخلاقية، السياسية أو الثقافية) واللااكتراث أو اضفاء طابع اللامبالاة. لطالما نظر بومان إلى علم الاجتماع باعتباره مشروعًا لتحرير الأفراد - "حرب ضد عملية شمولية الوجود ومن أجل استقلالية الإنسان" ، كما يخبرنا سيمون تابت (Simon Tabet).بغض النظر عن حقيقة أن صيغ بومان مجوفة بقدر ما هي منمقة، فإن المشروع يستحق الثناء؛ لكن أساسه هش، فمن الواضح أن فكرة الفرد قد تذبذبت منذ اختراعها وربما ستستمر على هذا الحال حتى لحظة "التفرد" ... لدرجة أن القراءة المتسرعة، وخاصة لكتابات مرحلته الأولى، يمكنها أن تجعلنا نعتقد أنه مؤلف مرتبط بمنهجية فردانية، "وهذا النزوع نحو الفردانية مرتبط، في جزء مهم منه، بمجتمع الاستهلاك". وفي مثل هذا السياق، يتراجع ما كان منتميا إلى حقل العلاقات الاجتماعية لمصلحة «صحراء الاستقلال بالذات»" (محمدالبقالي، 2018، صفحة 352). لكن باومان لا يهتم بالملصقات التي

غالبًا ما تحل محل التأمل من خلال مجرد التسمية البسيطة. إنه قاص أو راو، وليس منظّرًا. هذا النوع يمكن أن يزعج عالم الاجتماع المحترف، لكن يبدو لي أن هناك مكانًا ضروريًا حتى للمسافرين بلا حدود مثله. نتذكر أنه حتى في البانوراما الفرنسية، كان هناك جان بودريار الذي استكشف بسعادة المجالات الأكثر تنوعًا، من التحليل النفسي إلى علم الأحياء، ومن مونوغرافيا الأشياء إلى التصوير الفوتوغرافي، إلى حد كبير أرعب منتقديه. وهذا يعني أن الحدود يسهل اختراقها في النوع الأدبي لعلم الاجتماع، وأنه بدلاً من عزلها بالجدران وفصلها عن بعضها البعض، يجب أن تظل مفتوحة، مع خطر كسر الأبواب المفتوحة، وخلط الأنواع والقيام بـ" تأملات غير شرعية.

إن أي شخص يعرف شرائع وقيود هذا النوع من الممارسة الأكاديمية سيجد أن مهمتنا تبدو مغامرة حقيقية. إن محاولة التعامل مع هذا الكم الهائل من المنشورات ونظرية مثل نظريته حول "السيولة" تجعل من الصعب مقاربتها، دون الوقوع في التفاهة الصحافاتية، تحديًا حقيقيًا. لكننا سنكون رغم صعوبة المحاولة قد نجحنا في هذا الرهان لو تمكنا من تجاوز الوقوع في المدح أو السماح لنفسنا بالتأثر بالإحراجات المختلفة التي كان من المفترض أن يثيرها هذا المؤلف، وذلك بتتبع نشأته وتطوره بأمانة كبيرة. لذلك يمكننا بدون فخر أن نعتبر محاولتنا هاته مفيدة للغاية التي نقترحها هنا ونوصي بها لأي شخص يرغب في المغامرة أكثر في منعرجات العالم السائل لزيغمونت باومان.

خاتمة:

لقد حاول **باومن** تسليط الضوء على ظاهرة الميوعة وتجلياتها في المجتمع الغربي وأراد الوقوف على سلبياتها وتمظهراتها، كما حاول توضيح العقليات التي تحول دون نشر فوائدها وذلك بلغة علمية تفسيرية نقدية، فواقع الأمر عنده أنه لا يوجد قالب تعرض للتحطيم إلا وحل محله قالب آخر، وما أطلق سراح الناس من سجونهم القديمة إلا ليدخلوا في سجون التوبيخ والعجز عن نقل أنفسهم في الأماكن الجاهزة التي وضعتها الحداثة الغربية وفي المرجعيات الاجتماعية والسياسية التي تفككت، لقد كانت المهمة التي تواجه الفرد هي كيفية استخدام حريته لإيجاد الحلول المناسبة بحيث يمتثلون للقواعد السلوك التي أقرت الحداثة بأنها صحيحة وملائمة. (زيغمونتباومن، صفحة 47).

لقد تمظهرت السيولة في عصر القلق والخوف في كل مراحل الحياة ولم تنجح التكنولوجيا في حمايتها أو إنقاذها، لقد امتدت السيولة من سيولة الحركة إلى سيولة المشاعر والعواطف، لقد تغيرت المفاهيم وتبدلت وبدأ الصراع بين ما كنا نتصور، وبين ما هو مطروح في الواقع، فلا هدوء سبب الخيارات اللامتناهية.

لقد شكل فكر **باومن** النقدي وموقفه من الحداثة الغربية ومآلاتها الكارثية على الإنسان نافذة مطلة على الواقع المعاش، والذي أخضع فيه **باومن** الفكر الإنساني المعاصر إلى فحص دقيق فهو يصف مختلف أمراضه بدقة وعمق ويعرض أفكار جديدة وأصيلة وشديدة الأهمية لما لها من دور في فهم الوضع الراهن من عصر السيولة، لقد شكل حال الإنسانية في تغلبها المحور الرئيسي لفكر **باومن** الذي عمل فيه على شرح الحداثة الغربية عبر مسيراتها وانتقالها من الصلابة إلى السيولة وسرعة التغير، إذ أصبح التفكيك من السمات العادية وهو نتيجة حتمية لعملية الاذابة والتمييع التي تركزت بصمتها على شكل العلاقات الإنسانية، هي فلسفة تدعو إلى التحرر من الماضي ورافق هذا التحول ظهور المجتمع الاستهلاكي الذي مس كل مناحي الحياة.

لقد غدت الهويات متغيرة باستمرار وانتشر الخوف وعدم توفر الأمن، وغابت الوحدة، وافتقر الإنسان لأدوات التعايش، وما زاد فكر **باومن** تألقا هو راهنيته لكل ما يعانيه الإنسان المعاصر من أزمات فهو يعرض الأفكار الأصيلة ويصفها بدقة وعمق لكن كيف يمكن الخروج من هذا المأزق وكيف يمكن أن نسترد إنسانية الإنسان، وما هي مسالك الخروج على ضوء هذه المسائلة النقدية للحداثة.

إن النتيجة التي يصل إليها **باومن** في نقده للحداثة الغربية أن هذه الحداثة حاولت الخروج بالإنسان من الخضوع إلى السيادة، إلا أن ذلك أدى إلى تراجع الإنسانية في سلم القيم والأخلاق، حيث طغت المادة ورأس المال الفاحش فظهر الصراع والحروب وزاد تمرد الإنسان وطغيانه وأراد أن يصبح متألها وهذا ما خلق انهيار لمنظومة القيم وفقدان الشعور بالذات وأصبحت هناك حياة سائلة تفتقد

للقيم الجمالية والاحساس بالوجود، لقد أصبح إنسان الحداثة مجرد رقم عند الرأسماليين وأصبح العلم تابعا للسلطة والمال لذا يرى **باومن** أن أكبر تحدي للبشرية هو تأسيس سلم القيم وإعادة ترتيبه لتجنب مستقبل مجهول وضمان الاستقلال والحرية.

لقد أرجع **باومن** في نقده للعولمة وتأثير إديولوجياتها إلى سيادة نظام العولمة، لذا فتحليله الفكري منطقي يضع السيولة متزامنة مع تحولات العولمة وتحدياتها، لكن يجب أن نؤكد هنا أن تناول **باومن** للعلاقة بين الأخلاق والسيولة والحداثة والعولمة أخذ تفسيرا ميتافيزيقيا من خلال تحليله لما وراء الدولة ولما وراء السياسة والأخلاق ما بعد الحداثة، لكنه أسرف في التمييز بين ما بعد الحداثة والحداثة السائلة ولم يقدم في اعتقادنا التوضيحات اللازمة ورغم ذلك يجب أن نؤكد أن الكثير من القضايا التي أثارها **باومن** يجب أن تبحث بعمق في مدى ملائمتها لواقع هويتنا العربية وذلك على ضوء متغيرات العصر التي نحياها لخلق نوع من المثاقفة بين الحداثة الغربية والحداثة العربية إن صح التعبير تشكل الدراسات **الباومنية** من زاوية أكاديمية على تشجيع الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية على تناول مثل هذه الظواهر الأخلاقية الجديدة وذلك لتقديم رؤية حول المشكلات الجديدة للعلوم الاجتماعية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- Mármol, J. (2019). Zygmunt Bauman y la identidad como problema ético. D-Universidad Nacional Pedro Henríquez Ureña., 34-35.

2- جوزيف إبستاين (2010). ألكسي دو توكفيل: المرشد إلى الديمقراطية. القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر.

3- أبوجبر، حجاج. (2022)، هل من مكان للهوية في عالم معولم " استكشاف "الهوية السائلة" عند زيغمونت باومان". مجلة تبيّن, 11 .p ,(41)

4- شراد, ف. (2018). من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة - مكامن التأزم وسبل الانف ا رج – منظور زيجمونت باومان .-سلسلة أبحاث المؤتمر السنوى الدولى" كيف نقرأ الفلسفة–743 , (5)3 , " 770. https://doi.org/10.21608/philos.2018.121712

5- باومان، زيغمونت، (2016)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: سعد بن عبد الرحمن ، مشروع كلمة، أبوظبي/الإمارات العربية المتحدة. : هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.

6- باومان، زيغمونت (2016). الحياة السائلة، (ط1)، ترجمة: جاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان.

7- باومان، زيغمونت. (2018). الثقافة السائلة، ترجمة: جاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان.

8- باومان، زيغمونت. (2016). الحداثة السائلة، ترجمة: جاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان- القاهرة/مصر.

9- بوعروري ا. (2022). الهوية السائلة في المجتمعات المعاصرة. مجلة المقدمة للدراسات الانسانية والاجتماعية, 7(1) , 859-874. https://asjp.cerist.dz/en/article/193246

10- باومان، زيغمونت. (2012). الحرية. فريال حسن خليفة؛ محمد سيد حسن، القاهرة: مكتبة مدبولي .

11- توكفيل, أ. د. (1962). الديمقراطية في أمريكا. القاهرة: عالم الكتاب.

12- الجرجاني علي بن محمد السيّد الشريف، (2004). معجم التعريفات. القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير.

13- جعفر, م. (2023, 03 19). الهوية وإشكالية الاختلاف :m,ahwar sur Récupéré . https://m,ahwar, org

14- حافظ، أشرف. (2012). الهوية والصراع مع الذات –دعوة للنهضة الفكرية وإعادة صياغة المفاهيم. الأردن: دار كنوز للمعرفة.

15- حسانين, م. م. (2019). الشباب بين الهوية وتحقيق الذات. مصر: دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع.

16- حسين, عبد علي. (2023, 03 03). الحداثة السائلة وجدل الهوية :Récupéré sur alantologia . https:alantologia.com

17- شراد, &. ف. (2017). من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة-مكامن التأزم وسبل الانفراج– منظور زيجمونت باومان .(pp. 743-770) ,.باتنة.

18- شرارة ح., &. ب. (2019). واقع الهويات السائلة في سياق المثاقفة الجديدة. المجلة الجزائرية للأمن الإنساني, 1081005/https://asjp.cerist.dz/en/article Récupéré sur .pp. 702-680 ,(1)

19- غذامي، عبد الله محمد. (2009). *القبيلة والقبائلية، أو، هويات ما بعد الحداثة*. المركز الثقافي العربي، المغرب.

20- قريش, & بن علال. (2014). أثر الاستهلاك الهوياتي في بناء هوية الزبون كوسيلة لتحقيق التميز. *Revue Algérienne d'Economie et de Management*, *5*(1), 125-131.

21- عمارة, محمد. (1999). مخاطر العولمة على الهوية الثقافية. مصر: دار النهضة.

22- عمور،, س. س. (2023). سؤال الهوية والاختلاف من منظور الفيلسوف زيجمونت باومان. مجلة رفوف, 11(01), 612.

23- غضبان, ل. (2022). بلاغة الإعلام في الحداثة السائلة. المجلة الجزائرية للأبحاث و الدراسات.

24- الزهرة ڤني (2023). زيغمونت باومان المساءلة النقدية للحداثة الغربية. صحيفة المثقف.

25- لشهب، حميد. (2021). نقد الإستهلاكية في الحياة الغربية -رقمنة الإنسان وفقدان الهوية. مجلة الإستغراب.159-158 .pp ,(23)

26- نيكلاس لومان، (2010). مدخل إلى نظرية الأنساق. بغداد: منشورات الجمل.

27- ليبوفتسكي, ج. (2017). مملكة الموضة زوال متجدد "الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية .)د. مندور ,القاهرة : المركز القومي للترجمة.

28- مانسفيلد, ه. س. (2016). مقدمة قصيرة جدًّا. القاهرة/مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

29- محمد البقالي. (2018). سؤال المهنية والأيديولوجيا في الصحافة: الحالة المغربية أنموذجًا. الدوحة: مركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

30- مختار، م. (2023, 02 27). ستيوارت هول وتشكل الهوية الثقافية :Récupéré sur academia . https://www.academia

31- مزلرة, ز. (2017). أزمة الهوية الثقافية العربية في ظل العولمة –بين متطلبات تفعيل الوحدة الوطنية وتحقيق الاستقرار السياسي- الجزائر نموذجا، القراءة للتراث والهوية في زمن العولمة .(pp. 3-4) جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة: كنوز الحكمة.

32- مسعود، ج. (1992). الرائد معجم ألفبائي في اللغة والإعلام. لبنان: دار العلم للملايين للنشر والتوزيع.

33- اليكس ميكشيللي الهوية، (2012). تر: على وطفة. الهوية. دمشق: دار الوسيم.

34- ابن منظور جمال الدين الأنصاري، (2016). لسان العرب. دار المعارف.

35- هول، ستيوارت وطبر، بول. 2008. حول الهوية الثقافية. إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، مج. 2008، ع. 2، ص ص. 137-174.

36- مراد وهبه، (2007). المعجم الفلسفي. القاهرة: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع.